كتب

يدرس المفكّر الإنكليزي، في آخر كتبه وصولاً إلى العربية، «عن الشرّ» (دار نينوى)، العديد من الأمثلة المنتقاة من المسرح والرواية والسينما، في محاولة لتقديم قراءات في أصل الشرّ. وهو يعيد طرح السؤال الأزليّ ذاته: هل الشرّ من طبيعة البشر، أم هو مكتسبٌ؟

تيري إيغلتون وصف من نسمّيهم أوغاداً

بحثاً عن جذور الشرّ

علاء رشيدي

منذ هجَمات 11 أيلول/ سبتمبر في نيويورك، وما تلاها من جرائم أميركية في العراق، ومِن قمع رافق ثورات الربيع العربي، ومن ظهور الجَماعات الدينية المتطرّفة، إلى انفجار مرفأ بيروت العام الماضي، تعود إلى الواجهة، بين حينٍ وآخر، مفاهيمُ مثل: الشرّ، الشيطان، الجحيم. هذه المفردات، المستمدّة من القاموس الميثولوجي، الديني، تحضر بكثافة في القاموس السياسي والاجتماعي اليوم. وفي هذا الإطار، يكتب ريتشارد ج. بيرستاين أنّه يجب علينا مقاومة ذلك الإغراء الذي يدعونا إلى رؤية الشر باعتباره «سِمةً أنطولوجيّة ثابتة للشرط الإنساني»، لأنّ هذا سيعني ـ كما يعلّق تيري إيغلتون ـ الاعتراف بعدم قدرتنا على فِعل شيء ما حيالَه.

يفتتح إيغلتون دراسته «عن الشر» (دار نينوى) بعالم الطفولة، عائداً إلى رواية «أمير الذُّباب»، لويليام غولدينغ، التي تتخيّل حياة مجموعة من الأطفال، معزولين في جزيرة. وتدرس الرواية احتمالات الشر التي قد تقع بينهم. كما يعود إلى فيلم «طارد الأرواح الشريرة»، لويليام فريدكين، الذي يقترح وجود طفلةٍ خارقة تمتلك نوازع شريرة؛ وهو فيلم يطرح السؤال التالي: هل الشيطان القابع داخل الطفلة يمثّل جوهرَها الحقيقيّ، أم أنّه دخيلٌ عليها؟ وأخيراً، يناقش إيغلتون موضوع الشر والطفولة عبر حادثة حقيقية حصلت في بريطانيا قبل 15 عاماً. تروي حكاية الجريمة قيام طفلين، يبلغان من العمر عشر سنوات، عمداً، بتعذيب وقتل طفل يصغرهما سناً. لا يخفي المفكّر الإنكليزي سخطه من الرأي العام الذي ينظر إلى هذين الطفلين كشرّيرَيْن، من دون معرفة وتحليل الأسباب التي دفعت إلى الجريمة. ليس تركيز إيغلتون على علاقة الشر بالطفولة إلّا مدخلاً للتساؤل عن أصل الشر وعلاقته بالطبيعة الإنسانية: هل يُولَد البشر أشراراً أم أنّ البيئة والثقافة تنمّيان الشرّ في سلوكهم؟ يكتب مترجم الكتاب إلى العربية، عزيز جاسم محمد: «هنا يطرح المؤلف اتجاهين مختلفين في تفسير الأعمال الشرّيرة وأسبابها: الأوّل، الذي تبناه البُنيويّون الليبراليّون، يعزو سبب الشرّ إلى الدوافع البيئية المتمثّلة في الظروف الاجتماعية. أمّا الثاني، الذي تبنّاه السلوكيّون المعتدلون، فينصّ على أن هنالك مؤثرات في الشخصية تتحكّم بسلوك الفرد، ولها تأثير كبير على شخصيّته».

ينتج الشرّ عن أفعال إرادية، كما يمكن أن يكون نتاجاً للجهل أو نقص المعرفة. عن الشر الإرادي يكتب كانط: «نحن مسؤولون عن أفعالنا تماماً»، ويقول ريتشارد الثالث في مسرحية شكسبير: «أنا عازم على أن أبرهن أنني وغد». فيما لا تُخفي إحدى شخصيات «الفردوس المفقود»، لجون ميلتون، رغبتها: «أيها الشرّ، لتكن خيري أنا». ويتفاخر غوتز، في مسرحية «الشيطان والإله الطيّب»، لجان بول سارتر، بعلاقته بالشرّ: «أقوم بأعمال شرّيرة من أجل الشرّ».

في المقابل، تخلص دراسة حنة أرندت، «أيخمان في القدس: تقرير حول تفاهة الشر»، إلى أنّ المدير التنفيذي النازي، المسؤول عن إيجاد حلّ الإبادة الجماعية، لم يكن شخصيّة شيطانية تتبنّى الشرّ عن وعي، بل شخصاً «مجرّداً من الفكر»، وهذا ما جعله واحداً من أعظم المجرمين المعاصرين. هكذا، يصبح الشرّ أقرب إلى أفعالٍ بشريّة نُزع عنها المعنى وباتت مجرّد حركاتٍ مادية. وهذا يشابه آلية مأسسة التعذيب في السجون العربيّة، حيث ينبني على أساس قيام كلّ موظف بدوره؛ فالجلاد ليس إلّا آلة ميكانيكية في يد النظام القمعي الذي يحدّد له دوره.

في مسرحية «الناجي»، لإدوارد بوند، نجد مجموعة من المراهقين يرجمون طفلاً في مهده حتّى الموت. الغرض من هذه الحكاية إظهار النحو الذي يمكن من خلاله ليافعين يشعرون بالملل المزمن ارتكاب فظائع كهذه، من دون أن يكونوا أشراراً في أعماقهم. هنا، تظهر مرّة أخرى علاقة الشرّ بغياب المعنى، لكن من زاويةٍ أخرى. ويمكن، في أحد التأويلات، القول بأن المراهقين في مسرحية بوند جعلوا لأنفسهم معنىً ما عبر ارتكاب المحظور. يقول سورين كيركغارد، في كتاب «المرض حتّى الموت»: «يريد اليأس أن يُثبت وجوده عن طريق كراهيّته للوجود. يقدم الشر نفسه كشهادة حيّة على حماقة الخلق».

في رواية «بنتشر مارتن» لويليام غولدينغ، يجثم مارتن داخل جسده كما لو أنه منفصلٌ عنه؛ يُحرّك أطرافه كما لو أنه رجل جالس داخل رافعة يحرك أذرعها. يبدأ الشرّ بالظهور عند الانفصال بين الجسد والروح، بين الإرادة الساعية إلى السيطرة والتدمير، والجسد الذي لا معنى له. هكذا، يتجاهل مارتن، في الرواية، حقيقة وجود الآخرين، كما أنه يتعامل مع جسده كما لو كان جسدَ شخص آخر، ومع أجساد الآخرين باعتبارها مجرد وسائل ميكانيكية لإرضاء رغباته. يبرز الشرّ حين يتعامل الإنسان مع جسده أو مع أجساد الآخرين على أنّها مجرد أشياء لا قيمة لها.

وتربط رواية «السقوط الحر»، لويليام غولدينغ أيضاً، بين الحرية الإنسانية وبين أفعال الشر، لأن قوة الإنسان الإبداعية، وقوّته المدمّرة، تنبعان من المصدر نفسه. هنا، يحيل إيغلتون إلى هيغل، الذي رأى أنّه كلّما ازدادت الحرية الفردية، كان الشرّ في حالة نشاط. ويعلّق إيغلتون: «الخطيئة الأصلية نتاجُ تقليدي عن فعل الحرية، حرية اختيار تناول التفاحة». ويكتب سلافوي جيجيك: «الشرّ شيءٌ يهدّد بالعودة إلى الأبد. إنّه البعد الطيفي الذي ينجو بشكل سحري من الإبادة الجسدية ويستمر في ملاحقتنا». ورغم أن جيجيك يعتبر وجود الشر مستمرّاً ولانهائياً في السلوكيات الإنسانية، إلّا أنه يعتقد أنّ الخلود مرتبطٌ، رغم ذلك، بالخير. أما في رواية «صخرة برايتون»، لغراهام غرين، فتُعرَض الطرائق المتعدّدة التي يترابط فيها الخير والشر في ألفة سرّية بينهما، وفي اشتراكٍ بالعديد من السِّمات.

يقوم المؤلّف الموسيقي أدريان ليفركوهن، في رواية «دكتور فاوستوس»، بإبرام عقد مع شيطان الإلهام، ينصّ على أن يوافق الموسيقي على الإصابة بداء الزهري مقابل مساعدة قريحة الإلهام الشيطانية على وضعه أعمالاً موسيقية خالدة. وصول ليفركوهن إلى المجد (الموسيقيّ) الذي يبحث عنه يشترط تدمير نفسه. في قراءته لهذه الرواية، يتوصّل إيغلتون إلى خلاصةٍ مفادها أن على الفنّان الساعي إلى تخليص العالَم عبر قوّة فنّه التجريدية أن يكون على علاقة حميمة مع الشرّ. خلاصة تتّفق مع مقولة ويليام بتلر ييتس بأنّ للفن جذوراً غير محبّبة لأنها تقع «في الجزء الملوّث من القلب». بعبارة أُخرى، على الفنّان أن يتفاهم مع الشر لأنه مطالبٌ بالتعامل مع كلّ الخبرات الممكنة.

وإن تَمَثُّل الشر، في رواية «دكتور فاوستوس»، بتدمير الذات، فإنّ مصّاص الدماء من ناحية، وشخصية ياغو في مسرحية «عطيل»، لشكسبير، من ناحية أخرى، يعطيان مثالين حديثين عن الشرّ باعتباره إشباعاً للذات عبر تدمير الآخر بشكل ممنهج. وعلى المستوى الأيديولوجي، تجتمع الأنظمة الشمولية القمعية مع الحركات المتطرّفة في ممارسة إبادة الآخر لإثبات الوجود.

ينتقد إيغلتون أطروحةَ ريتشارد ج. بيرستاين، في كتابه «الشر الراديكالي»، القائلة بأن تدمير مركز التجارة العالمي عام 2001 يمثّل خُلاصة الشرّ في عصرنا. وهو يحاجج، ضدّ هذه المقولة، بأنّ الولايات المتحدة قتلت، وبشكل لا يمكن تصوّره، عدداً أكبر بكثير من المدنيين الأبرياء منذ منتصف القرن الماضي. ويرى إيغلتون أن تعريف «الإرهاب الإسلامي» بوصفه شراً، يتأتّى من رفض الاعتراف بالمظالم التي عانى منها المجتمع الإسلامي داخل النظام العالمي، وبأن هذا العنف قد يكون نتيجة ممارسات ظالمة وقمعية واجهتها المجتمعات المسلمة طيلة عقود.

مكتبة داخل المكتبة

يمكننا اليوم، من دون تردّد، الحديث عن امتلاك تيري إيغلتون مكتبةً خاصّة به داخل المكتبة العربية. ذلك أنّ «عن الشرّ» (دار نينوى) ينضمّ إلى قائمة طويلة من أعماله المترجمة إلى لغة الضاد، ومنها «فكرة الثقافة» (المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات)، و«نظرية الأدب» (المدى)، إضافة إلى «النقد والإيديولوجيا» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر)، وعدّة عناوين أخرى.

يرفض القول بأن الشرّ سمة أنطولوجيّة للشرط الإنساني

يظهر الشر إذ نتعامل مع جسدنا وأجساد الآخرين كمجرّد أشياء

تيري إيغلتون في معرض إدنبرة الدولي للكتاب، 2007 (Getty)

نظرة أولى

عن دار «أكت سود» الفرنسية صدر حديثاً كتاب «كلّنا شهود» الذي يتضمّن رسوماتٍ وضعها الفنّان السوري نجاح البقاعي حول أجواء التعذيب في السجون السورية، وإلى جانبها نصوصٌ يعلّق فيها خمسة وعشرون كاتباً على هذه الرسومات. يأتي الكتاب بالتوازي مع معرضٍ باريسيّ لأعمال البقاعي، انطلق في السابع عشر من الشهر الجاري في رواق Fait et cause. من المشاركين في كتابة النصوص سنان أنطون، ومحمد برّادة، ونانسي هيوستن، ولوران غوديه، وسيباستياو سلغادو، وحبيب عبد الرب سروري، وأوليفييه بي، وسمر يزبك، وجيمس نويل، وسعاد لبيز.

«حياة تالفة: أزمة النفس الحديثة»، عنوانُ النسخة العربية من كتاب الباحث الأميركي تود سلون، وقد صدرت حديثاً بترجمة عبد الله بن سعيد الشهري في طبعة مشتركة بين داري «ابن النديم» و«الروافد». ينطلق سلون من فرضيّة أنّ النفس تعاني من أزمةٍ في وقتنا الراهن، وهو يخصّص فصول كتابه للوقوف على طبيعة هذه الأزمة، وأبعادها، ومستوياتها، محاولاً الكشف عن التأثيرات النفسية المضرّة للحداثة الرأسمالية وإيدولوجيا الاستهلاك. يحيل عنوان الكتاب إلى عبارة معروفة أطلقها الفيلسوف الألماني ثيودور أدورنو على نمط عيشنا المعاصر.

في كتابها «فلسفة العنف»، الصادرة ترجمته العربية حديثاً لدى «دار الساقي» بتوقيع جلال بدلة، تقدّم الباحثة الفرنسية إلزا دورلين قراءةً جينيالوجية في الدفاع عن النفس، محاولةً الإضاءة على تاريخ طويل من التمييز في هذا المجال. من بين الأمثلة التي تتعرّض لها دورلين، قيامُ «القانون الأسود»، الذي «نظّمت» به الإمبراطورية الفرنسية شروط العبودية في القرن السابع عشر، بمنع الأشخاص ذوي البشرة السوداء من حمل السلاح أو حتى العصيّ، لتجريدهم من إمكانية حماية أنفسهم، التي كان الأشخاصُ البيض وحدُهم مستفيدين منها.

عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، صدر مؤخراً كتاب «العالم العربي في ألبومات تان تان» للباحث الفرنسي لوي بلين بترجمة سعود المولى. ينطلق الكتاب من ملاحظة أن انجذاب كثيرٍ من الأوروبيين إلى العالم العربي، معرفياً أو سياحياً، جاء بعد قراءة ألبومات «تان تان» في طفولتهم. من هذا المنظور يعتبر بلين أن مؤلّف «تان تان»، الكاتب والرسّام البلجيكي هيرجيه، مثّل عامل وساطة ثقافية، وهو الذي وصف هذا الشرق القريب كفضاء حُلمي. لكن صورة العالم العربي التي تنقلها مغامرات تان تان تكشف أيضاً أحكاماً غربيّة مسبقة.

عن منشورات «سيريس»، صدر مؤخراً، باللغة الفرنسية، كتاب جديد للمؤرّخ التونسي هشام جعيّط بعنوان «التفكير في التاريخ، التفكير في الإسلام». من المواضيع التي يتناولها العمل أثرُ التنقّلات البشرية في صناعة التاريخ، من هجرات وغزوات وترحيل، كعناصر لا يمكن للمؤرّخ أن يغفل عنها لفهم تغيّرات تحدث في البنى الاجتماعية وأنماط السلوك ومسارات الأحداث. كما يعود جعيّط إلى علاقات الشرق والغرب، وهو موضوع شغله في أعمال سابقة، ومن خلاله يتناول المسألة الدينية، عبر فهم تشكّل صورة الإسلام في الغرب وصورة المسيحية في الشرق.

بترجمة يوسف نبيل، صدرت عن «آفاق» النسخة العربية من رواية «جريمة في حفلة صيد» للكاتب الروسي أنطون تشيخوف، وهي أوّل ترجمة عربية لها من عن الروسية مباشرة. من خصائص هذه الرواية أنّها الأطول ضمن ما كتب تشيخوف، الذي عُرف بنزعته إلى الاختصار والتقشّف التعبيري، على عكس معاصرين له في القرن التاسع عشر، مثل فيودور دوستويفسكي وليو تولستوي. تعدّ هذه الرواية من ضمن كتابات الشباب، حيث وضعها تشيخوف وهو في عمر الرابعة والعشرين، وتنتمي إلى أدب الجريمة، مقدّمةً قراءة نفسية لروسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

بترجمة آن كارتر وتعليق روبرت إروين، صدرت حديثاً لدى منشورات «نيويورك ريفيو بوكس. كلاسيكس» طبعة إنكليزية جديدة من كتاب «محمّد» للمؤرّخ واللغوي الفرنسي ماكسيم رودنسون (1915 ـ 2004). صدر الكتاب للمرّة الأولى عم 1961، وفيه يقدّم رودنسون سيرة للنبيّ ولبدايات الإسلام. يتّخذ عمل ردونسون مقاربةً ماديّة، محاولاً تعريف القارئ بـ«رجلٍ لحم ودم»، وبشبْه جزيرة تعيش صراعات وتبحث عن هويّة. إضافة إلى فصول تصف ولادة الإسلام وتطوّر شخصيّة نبيّه، يقدّم رودنسون فصلاً أخيراً يصف العالَم كما بات بعد انتشار هذه الديانة.

في طبعة مشتركة بين «منشورات مركز الدراسات والترجمة الموريسكية» و«مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات»، صدر مؤخراً كتاب جماعي بعنوان «هجرات الموريسكيين الأندلسيين وتداعياتها بالفضاء المغاربي». من المقالات التي يقدّمها الكتاب: تأثير الهجرات الأندلسية على مدينة الرباط خلال القرن 17» لـ هشام تايب، و«الموريسكيّون التونسيّون من الازدواج إلى الاندماج» لـ أحمد الحمروني، و«أضواء وتساؤلات عن الإسهام الأندلسي في تأسيس وتعمير مدينة مساكن التونسية» لـ رقية مراد، و«زاوية القشاش بين الأندلسيين والأتراك» لـ سلامة القفصي.